الباب الخامس

فلفريدو باريتو
ودورة الصفوة فى اطار النظام

المحتويات

الفصل الثالث عشر : فلفريدو باريتو ، الجذور الفكرية والسياق الواقعى .

الفصل الرابع عشر : المنهج عند فلفريدو باريتو ، طبيعة القضايا الأساسية .

الفصل الخامس عشر : النظام الاجتماعى ، ودورة الصفوة فى اطاره .

تمهيد :

شكلت نظرية فلفريدو باريتو بداية الجدل مع عصر التنوير ومنجزاته . واذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية قد شكلت التجسيد الفكرى والعلمى لمبادئ التنوير ، فإننا سوف تجد ان النسق النظرى لباريتو يقف بعيدا عن هذه الأنساق ، ويميل الى قيادة برهنة مخالفة أو مضادة . واذا كانت الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية – ماركس دوركيم ، فيبر – قد استمرت مستنده الى مبادئ التنوير، تحاول التفاعل من خلالها مع الواقع ، فإن القضايا النظرية التى قدمها فلفريدو باريتو كانت رفضا لقضايا هذه الأنساق النظرية ، واستكمالا لذلك تشكيكا فى بعض مبادئ التنوير الفاعله من خلال العلم الاجتماعى .

واذا كان فكر التنوير قد حاول إدراك الظواهر الاجتماعية – باعتبارها جزءا من ظواهر الكون – بالنظر الى مقولة السبب والنتيجة – مستلهما فى ذلك نموذج العلم الطبيعى المتطور – خلال هذه الفترة – وهى المقولة التى تحاول ادراك الأسباب المخلقة للواقعة الاجتماعية أو العوامل المؤثرة عليها من خارجها ، كما يحدث فى نطاق الظواهر الطبيعية . فإننا نجد أن فلفريدو باريتو يرى ان العامل الأساسى المحدد لكل الظواهر الاجتماعية يكمن فى عمق الذات البشرية ، راسب فيها يحدد سلوكيات الانسان وتبريراته المنطقية لسلوكياته وأفعاله . قد تكون هذه الرواسب مبادئ ذات طبيعة بيلوجية تدفع الانسان من داخله ، أو هى عواطف تشكل طاقة دافعة لسلوكيات الانسان فى الواقع الاجتماعى ، ومحاولتهاقناع الآخرين بهذه السلوكيات ومنطقها أمامهم . وهو بذلك – على مانرى – يسبح فى التيار المعاكس لفكر التنوير .

وإذا كان عصر التنوير قد رفع شعارات الحرية والأخاء والمساواة ، باعتبارها القضايا التى تشكل مقدمات دعوة الجماهير للمشاركة فى النظام السياسى والاجتماعى ، وهى الدعوة التى وجدت تجسيدا لها فى الثورة الفرنسية التى اعتبرت مدخلاً للمشاركة الجماهيرية فى صياغة القرار السياسى طالما أنها التى تتحمل معاناه تجسيد هذا القرار . فإننا نجد فلفريدو باريتو يجفل من هذه المشاركة الجماهيرية ، ويرى أن البشر فى المجتمع ينقسمون الى صفوة ولا صفوة ، الأولى هى التى تصنع التاريخ ، بينما تتلقاه الثانية مصنوعاً ، وليس عليها سوى الخضوع لحركته ومتطلباته . فالتاريخ من وجهة نظره نتاج لدورات الصفوات على خريطة الزمن ، أما الجماهير فهى بعيدة دائماً على هامش الدائرة أو على هامش التاريخ .

و ذا كان شعار التقدم والتطور من الشعارات الأساسية التى تميز بها عصر التنوير ، وهى الشعارات التى ورثتها كافة الأنساق الكلاسيكية للنظرية الاجتماعية . حيث النظر الى

المجتمع الانسانى من خلال منظور تطورى يرى ان المجتمع الانسانى ذاهب أبدا الى الكمال ، وان كل مرحلة من مراحل التطور ليست سوى خطوة على طريق التقدم نحو الكمال الانسانى والاجتماعى ، من هنا فالتطور هنا خطى له بداية وينشد الوصول الى نهاية . على خلاف ذلك نرى ان باريتو يؤكد على دورية التاريخ ، فالتاريخ ليس سوى دائرة تقود الصفوة المجتمع على محيطه ، ليس ثمة كمال انسانى ولكن هناك انتقال من حالة أو مرحلة الى أخرى ، كل مرحلة لها صفوتها التى تطبع نظرتها وأخلاقها على المجتمع والتاريخ حركة دائرية تشهد على تعاقب الصفوات .

ويعتبر العقل من المفاهيم أو الشعارات الأساسية التى أكد عليها عصر التنوير . فتحت وطأة التقدم الهائل الذى حققته العلوم الطبيعية ، ظهر ايمان بقدرة العقل المستند الى المعرفة العلمية على تنظيم المجتمع وقيادته وتجنيبه المشكلات المختلفة . بحيث نجد ان مختلف الاتجاهات الفكرية تؤكد على دور العقل ، فقد أكد ديكارت على دور الفكر أو العقل ، حتى جعلة أساساً للتثبت من حقيقية الوجود الانسانى ، وكانت الذى رأى ان العقل يدرك واقعه بناء على مقولات الادراك الثلاث التى تشكل جهازه المدرك للواقع ، وهيجل هو الذى أكد على تطور الأفكار باعتبارها القوة الدافعة للتفاعل والتطور الجدلى . ولاتختلف الوضعية عن ذلك ، فهى التى أكدت على أهمية العلم فى تنظيم استقرار المجتمع وتطوره ، بل ذهبت أحيانا الى المطالبة بحكم العلماء للمجتمع على نحو مايذهب سان سيمون .

فى مقابل ذلك نرى ان باريتو يخالف موقف التنوير المؤكد على دور العقل فى تأكيد استقراره وتطوره . وبديلاً لذلك نجده يطرح الرواسب باعتبارها عناصر بيلوجية خالصة كامنة فى عمق الذات البشرية وهى القادرة دائماً على تأكيد استقرار المجتمع أو تطوره أو شيوع حالة الفوضى فيه ، وذلك بناء على مجموعة الرواسب الشائعة فى الصفوة التى تتولى ضبط تفاعلاته والسيطرة عليه . فالرواسب بدلا من العقل ، هى الحاكمة لحركة المجتمع فى قلب التاريخ .

وإذا كان الاستقرار هو المنهج الذى أكد عليه التنوير نقلاً عن العلوم الطبيعية ، بحيث برز اتجاه الاستفادة منه فى نطاق العلوم الاجتماعى . ولما كان الاستقراء يحاول ادراك الحقيقة من خلال تجلياتها ومؤشراتها الخارجية ، فإننا نجد ان فلفريدو باريتو يؤكد أن فهم الفعل أو السلوك أو الظاهرة الاجتماعية يستوجب ادراك الرواسب التى تشكل مظاهر الظاهرة تجليات لها .. ومن ثم فعلى العلم الاجتماعى ان يركز على ادراك الرواسب المحددة للواقعة الاجتماعية ، لأنها هى التى تكسبها خصائصها . وهو بذلك يشكل بداية تيار فكرى كامل ، سوف يؤكد دائماً

على الادراك الذاتى للواقعة الاجتماعية ، وهو التيار الذى سوف يظل متناميا حتى ينادى بالغاء التنوير الفكرى ومنجزاته على نحو مافعل منظروا الفكر النقدى الحديث ، كما يتجسد ذلك فى مؤلف تيودور أدورنو ، وماكس هوركها يمر فى مؤلفهما « جدل التنوير » . وسوف نعرض خلال هذا القسم لطبيعة التيارات الفكرية التى شكلت فكر فلفريدو باريتو ، ثم نحدد قضايا المنهج والاجراءات المنهجية ، وفى النهاية نعرض لتصوره عن البناء الاجتماعى من حيث عناصره ، وطبيعة العلاقة بين هذه العناصر .

الفصل الثالث عشر

فلفريدو باريتو
الجذور الفكرية والسياق الواقعى

المحتويات

مقـــدمـة

أولا : فلفريدو باريتو ، الانسان والسياق .

ثانيا : فلفريدو باريتو والشوق الى نموذج العلم الطبيعى .

ثالثا : باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية .

رابعا : فلفريدو باريتو والداروينية الاجتماعية .

خامسا : باريتو والتحليل بمتغيرات غير ماركسية .

سادسا : نظرية باريتو ، أبعادها الشخصية والاجتماعية .

مقدمة

الى حد كبير شكل تفكير باريتو جدلاً مع فكر التنوير ، وهو الفكر الذى سيطر على المرحلة التاريخية التى انتهت بقيام الثورة الفرنسية . ونشأة النظرية السوسيولوجية ، أى قيام التفكير العلمى المنظم بشأن المجتمع . واذا تمثلت أفكار التنوير الرئيسية فى الإيمان بالعقل ، والايمان بالتقدم ، لأن ماهو أكثر اكتمالا مازال فى قلب المستقبل ، هذا الى جانب النظر الى التفكير العلمى الطبيعى باعتباره الفكر العلمى الذى يجب ان يحتذى فى التفكير والعمل ، لحساب التخلى عن الميتافيزيقا فكراً ومنهجاً .

ومنذ البداية نجد أن باريتو يتناقض مع أفكار التنيور ويرفض تأكيد التنوير على العقل كمدخل لفهم المجتمع ، باعتبار ان العقل ليس إلا عاملاً غير ملائم لفهم التاريخ [١] . واذا كان ثمة ايمان بعقلانية الانسان وكماله ، وهى القضية التى ركز عليها فكر التنوير فإننا نجد ان باريتو يرى الانسان غير عقلانى أساسا ، وأن التاريخ لايضيف اليه تقدماً . فهو كائن لايسيره العقل ، وإنما تسيره وتدفعه الرواسب الكامنة فى أعماقه [٢] . واذا كانت الأنساق النظرية التى شهدتها مرحلة التنوير – وهى المرحلة التى عايشت ميلاد النظرية الاجتماعية – قد أكدت على مبدأ التقدم أو التطور نحو الكمال الانسانى ، فإننا نجد ان باريتو على خلاف التنوير ينظر الى التاريخ باعتباره يسير دوريا ، ومن ثم فقد قدم نظريته عن الصفوة التى تناوب عناصرها مراكز القوة والسلطة فى المجتمع ، دون أن يكون لهذا التناوب أو التغير الناتج عنه أى تأثير على حالة البشر الذين يشاركون عضوية هذا المجتمع ، فهو الذى قال أكثر من مرة ان المضمون واحدا دائماً ، والأشكال هى التى تتغير فقط [٣] .

وفى محاولة رصد الاتجاهات النظرية التى عايشها باريتو ، والأحداث التى تفاعل معها ، باعتبارها العناصر التى أسهمت فى تشكيل أفكاره ، فإننا سوف نجد منذ البداية ان حياته لم تسر حسب وتيرة واحدة ، ولكنها خضعت لتحولات جذرية انعكست فى التحولات الفكر التى طرأت على مواقفه الفكرية والأيديولوجية .إضافة الى حالة عدم الاستقرار التى خضعت لها حياته الأكاديمية .

ويعتبر العلم الطبيعى أول الاتجاهات الفكرية التى كانت موضع تركيزه واهتمامه ، حيث شكل النموذج الفكرى الذى ينبغى تمثله لفهم الظواهر الاجتماعية . وتمثل الوضعية الاجتماعية – وبخاصة الفرنسية – كما أسسها سان سيمون وأوجست كونت ومن تأثر بهما مثل جيتانو موسكا ثانى هذه التيارات الفكرية . وقد كانت الماركسية هى التيار الفكرى الثالث الذى طرح

حلولا جزئية لتساؤلات أرهقت العقل الأوربى فى هذه المرحلة . هذا الى جانب كثير من الأفكار التى كان لها تأثيرها عليه ، وهى الأفكار التى تنتمى الى الفلسفة المثالية خاصة مـ كس فيبر كتعبير سوسيولوجى عن هذه الفلسفة ، ثم الداروينية الاجتماعية كما قدمها هربرت سبنسر أحد روادها البارزين . هذا بخلاف الأحداث الواقعية التى فرضت طابعا معينا على تفكير باريتو على الأقل أنها فرضت عليه التفكير فى نطاق مجالات معينة ، وفيما يتعلق بقضايا محددة ، وهو ماسوف نعرض له فى الصفحات التالية :

أولا : فلفريدو باريتو ، الأنسان والسياق (*)

مثلما تجاهل فلفريدو باريتو رواد علم الاجتماع الذين أخذ عنهم وتدرب على أفكارهم ، لم ترده كثيرا صفحات علم الاجتماع المعاصر . ولعل ذلك يرجع لأسباب عديدة ، منها أنه برغم اكتمال مؤلفه (مقدمة عامة لعلم الاجتماع General treatise on sociology) فى سنة ١٩١٢ ، فقد ظهر فى ١٩١٦ فقط أثناء الحرب العالمية الأولى ، ولأنه قد نشر بالانجليزية فقد كان منطقيا أن يلقى استقبالا ملائما . غير أن ذلك لم يحدث بسبب رفض مدرسة دوركيم – التى كانت لها سطوتها فى فرنسا – لمدخل باريتو المختلف فى علم الاجتماع . ولعل قلة قراء علم الاجتماع فى ايطاليا ابان هذه المرحلة كان أحد هذه الأسباب أيضا [1] . غير أن سببا رئيسيا ثالثا يعتبر مسئولا عن عدم .ذيوع أفكار باريتو أثناء هذه المرحلة ، هذا السبب يتمثل فى أن باريتو أسس بناءه النظرى حسب متغيرات لم يعمل بها منظروا عصره . فبينما تناول معاصروه (ماركس ، دوركيم ، فيبر) المتغيرات الى تقع فى اطار المشتقات – وهو نطاق المتغيرات التابعة من وجهة نظر باريتو – اتفاقا منهم وروح التنوير ، نجد أن باريتو قد أنجز تحليله حسب متغيرات من نوع مختلف . هذه المتغيرات نجد أصولها فى العواطف الداخلية لبناء الانسان ، أى الرواسب الأساسية الكامنة فى أعماقه باعتبارها المتغيرات المستقلة والمؤسسة للتفاعل الانسانى . والتى ينبغى تحديدها اذا رغبنا فى تحديد ملامح هذا التفاعل . اذا فبينما عملت النظريات الاجتماعية بمتغيرات ظاهرة للعيان لها مؤشراتها الواضحة كـ لاقتصاد أو السكان أو الثقافة والقيم ، نجد أن باريتو يتراجع عن روح التنوير وحاول ممارسة تحليله بالنظر

(*) ولد فلفريدو باريتو فى باريس ١٨٤٨ من أبوين أيطاليين ، وقد توفى فى سنة ١٩٢٣ من ٧٥ عاما . وقد تدرج فى المناصب حتى وصل الى أستاذ لعلم الاقتصاد والاجتماع فى جامعة لوزان Lausanne بسويسرا .

الى اطار نظرى يعمل بمتغيرات من مستوى أعمق من متغيرات التنوير ، أو لنقل بما هو كائن وكامن فى عمق الطبيعة البشرية . ومن ثم فليس صادقا ذلك القول الذى يذهب اليه ارفنج زايتلن حينما يعتبر تنظير باريتو ليس إلا حوارا مع أفكار الشبح الماركسى . ذلك أن باريتو قد مارس تحليله على أرضية جد مختلفة ، وبمتغيرات لم تستطع النظرية السوسيولوجية استيعابها فى هذه المرحلة . ذلك يفسر تجاهل باريتو لنظريات ماركس ، ودوركيم ، وفيبر . فقد كانت – من وجهة نظره – تنتمى الى نطاق آخر لم يرض لنفسه العمل فى اطاره .

وتكشف دراسة الموقف النظرى لفلفريدو باريتو عن تعرضه لمؤثرات عديدة . أول هذه المؤثرات تلك المتصلة اتصالا مباشرا بحياته . والتى فرضت على تفكيره أن يتميز بطابع خاص . حيث تميزت حياته بدرجة عالية من التحولات وعدم الاستقرار . فمثلا انتقل أبوه من ايطاليا الى فرنسا فى الثلاثينيات من القرن الثامن عشر وظل بها حتى عاد الى ايطاليا فى ١٨٥٥(٢) . ومما لاشك فيه أن ذلك كان له وطأه وتأثيرا على الطفل باريتو سواء من حيث تغير القيم المجتمعية التى عايشها أو النظام التعليمى الذى تعلم فى اطاره .

ويشكل التعليم الأكاديمى الذى تلقاه باريتو التحول الثانى الذى تميزت به حياته . فقد درس الهندسة فى كلية الهندسة بتورين Turin polytechinical school . وتخصص كأبيه فى الهندسة المدنية ، حيث أنفق عامين كاملين فى دراسة الرياضة ، وهو أسلوب التفكير الذى كان له تأثيره على تفكيره المستقبلى . وقد اختتم باريتو هذه المرحلة بدراسة عن « المبادئ الأساسية لتوازن الأجسام الصلبة » حيث نجده فى مرحلة تالية ينقل هذه الرؤية الى علم الاقتصاد والاجتماع . غير أن التحول الرئيسى لحياته حدث بعد وفاة أبيه فى ١٨٨٢ . فتحت تأثير ذلك غير أسلوب حياته كلية ، ومن بينها تحوله الى الدراسة الجادة للاقتصاد (٣) . أما التحول الأخير الذى حدث له فى نهاية حياته العلمية فهو تحوله الى دراسة علم الاجتماع ، حيث تركزت محاضراته فى أواخر أيام حياته فى نطاق علم الاجتماع السياسى وتاريخ المذاهب الاجتماعية والاقتصادية(٤) .

غير أن هناك تحولا رئيسيا له فى حياته ، وهو التحول الذى يتمثل فى انتقاله من الحياة العصامية النشطة الى حياة أرستقراطية مترفة . فقد أصبح ثريا نتيجة لوصية بثروة كبيرة حصل عليها بعد وفاة أحد أعمامه . ومن ثم فقد بدأ يعيش حياة لم يكن يسمح بها مرتبه السابق إذ بنى منزلا فى سيلنى Celigny القريبة من لوزان Lausanne ثم قاد بعد ثرائه حياه مترفه ومنغمسة فى اللذات ، يشرب أفضل أنواع النبيذ والخمور . وبعد عدة أعوام من هذه الوصية

التى الت اليه نشر مؤلفه « النظم الاشتراكية Systems Socialists » ، حيث قدم تحليلا ونقدا مفصلا للمذاهب الاشتراكية ولكل المذاهب التى تبيح تدخل الدولة (٥) .

ويتمثل التحول الرابع الذى طرأ على حياته ، فى مجموعة التحولات الأيديولوجية التى طرأت على موقفه الاجتماعى . اذ نجده فى بداية حياته - اتباعا لأبيه - يلتحق بالصالونات الأرستقراطية ، حيث اختلط بالأوساط البرجوازية العليا ، وفى هذه المرحلة كان جمهوريا ديموقراطيا غيورا ، مؤكدا على النزعة السلامية (٦) . غير أننا نجده فى مرحلة تاريخية تالية يشن هجوما على النظريات - الليبرالية الديمقراطية والاشتراكية الماركسية خاصة - (٧) . بينما فى مرحلة تالية نجده ينقلب من اليسار الليبرالية ، فقد كان فى بداية حياته بلوزان يعتبر نفسه ليبراليا يساريا . إذ نجده فى هذه الفترة يوفر المأوى للاجئين اليساريين الذين فروا من ايطاليا بعد اضراب ميلانو فى ١٨٩٨ . غير أننا نجد أن آراؤه قد تغيرت بصورة جذرية وحادة ، فقد تخلى عن أمله فى اعادة بناء الجوانب الاقتصادية لايطاليا على الطريقة الليبرالية ، وتحول ضد أى شكل من أشكال الفكر الديمقراطى . حيث ميزت هذه الحالة من الكراهية المرضية لأفكار اليسار كل كتاباته التالية (٨) . ويتضح تحوله ضد النزعة الانسانية حينما نذكر ماكتبه فى شبابه وهو شاب فى فلورنسا كمدافع نشط عن النزعة الانسانية والسلامية « تعتبر الحرب والسلام المسلح رفاهية مكلفة تتمتع بها الطبقة الحاكمة على حساب الأمة » ويرتبط بذلك أنه فى هذه المرحلة كان معاديا للاستعمار . حيث أكد أن تونكين Tonkin تكلف فرنسا كثيرا . ولا تقدم تونس أية فائدة لايطاليا سوى بعض الوظائف الادارية لأبناء البرجوازية . غير أننا نجده فى فترة تالية ولسبب غير واضح يتحول عن موقفه السابق ليكشف عن كراهية حادة وادانة للنزعة الانسانية ، التى ليست سوى عاطفة الضعيف فى اطار الطبقة المحكومة أو عاطفة تشهد على تدهور الصفوة الحاكمة . ويؤكد بوسكيه Bousquet أنه رغم ذلك فقد تحول فى أيامه الأخيرة الى الحديث عن شرور الحرب ، غير أن آراؤه فى هذه المرحلة لا تستلاءم كثيرا مع امتداحه للقوة واستخدامها فى الصراع الطبقى أو الصراعات التى قد تظهر بين الأمم (٩) . وفى اطار ذلك فانه بامكاننا أن نصل الى استنتاج رئيسى يذهب الى أن باريتو كان ليبراليا انسانيا ديموقراطيا فى فترة حياته الأولى ، غير أنه حينما امتلك الثورة وعاش الحياة المريحة ، بدأ يمارس انعكاسا لهذه المرحلة ، حياة لا انسانية ، يؤكد فيه على الصراع والقوة والرواسب ذات الفاعلية فى حركة التاريخ والمجتمع .

ولعله من الضرورى – لفهم حياة باريتو وتفكيره – أن نتعرف على القراءات العلمية التى تعرض لها . وفى هذا الصدد نجد أن هناك ثلاثة مجموعات فكرية كانت لها وطأتها على تفكيره

الأولى : مجموعة قراءات الفكر الاغريقى والرومانى ، حيث كان باريتو على معرفة باللغة اليونانية واللاتينية وكانت لديه عاطفة قوية نحو التراث والتاريخ الأغريقى والرومانى . وقد اطلع على هذه المجموعة فى فترة شبابه عند بداية اهتمامه بالتاريخ والمجتمع . ومن ثم نجده يرى أن علم الاجتماع بالنسبة له يعتبر دراسة لأوربا القديمة بقدر ما هو دراسة للمجتمع الأوربى المعاصر ولعل قراءاته للاساطير اليونانية القديمة شكلت أساس لتصوراته عن الرواسب وعلاقتها بالمشتقات ، التى تتسم بالطبيعة غير العلمية .

الثانية : وهى المجموعة التى تعرض لها باريتو بالبحث والدراسة . وتتمثل هذه المجموعة فى مجموعة النماذج النظرية التى طرحها فكر التنوير . حيث هاجم باريتو فكر التنوير أيا كانت الأشكال التى اتخذها . فقد ذهب باريتو – مناقضا فى ذلك معظم مفكرى التنوير – الى القول بأن العقل يعتبر وسيلة غير ملائمة ، وربما غير صالحة لفهم المجتمع والتاريخ (١٠) . وبينما كان فكر التنوير يؤكد على العقلانية كمعيار رئيسى للفعل السلوك ، نجد أن باريتو يؤكد أن أفعالنا غير منطقية وأننا نطرح تبريرات لها فى صورة نظريات أو أيديولوجيات . واذا كان مفكرى التنوير قد أكدوا على النظريات والمبادئ ، فقد أكد باريتو على الرواسب باعتبارها طبقة قريبة للغاية من الغرائز فى تشكيل السلوك الانسانى والتأثير عليه .

الثالثة : وتتمثل فى المؤثرات الفعلية من داخل علم الاجتماع كنظام عقلى ، وهو التأثير الذى لم يسلم به باريتو أبدا . وربما لأنه كما ذهب ارفنج زايتلن قد شعر قد فاق كل السابقين عليه بما فيهم أرسطو Aristotle وميكيافيللى Macchiavelle وماركس وداروين وآخرون . اذ نجده وهو يكمل دراسته « مقدمة فى علم الاجتماع » لايقتبس من أى شخص آخر مؤكدا أن ذلك لا أهمية له فى الدراسة العلمية للظواهر الاجتماعية . وهو الأمر الذى دفع محرره ومترجمة أرثر لفنجستون Arthur Livingston الى القول ، بأنه فى اطار علم ضم ملايين الكلمات ، لم يذكر باريتو المفكرين العظام الذين أخذ عنهم ، فهو لم يذكر تأثره العام بكونت Conte ونظرية المشتقات لبنتام Bentham « حيث نقل باريتو بعض قضاياها حرفيا » ونظرية الدورة الطبقية لجيتانوموسكا Gaetano Mosca ونظرية الرواسب عن جيمس فريزر Frazer وآخرين غيرهم ، هذا بالاضافة الى كثير من التفصيلات التى أخذها عن هيجل ووليم جيمس وآخرين كثيرين (١١) .

وتشكل الحياة الأكاديمية والجامعية التى عاشها البعد الرابع الذى كان له تأثيره على طبيعة تفكيره . حيث نجده قد عاش حياة أكاديمية اتسمت نهايتها بالمرارة التى كان لها تأثيرها على تفكيره ومزاجه . فقد تعرف باريتو على ليون والراس Leon Walras أستاذ الاقتصاد السياسى بجامعة لوزان . وابتداء من هذه اللحظة بدأ باريتو فى كتابه مقالات فى النظرية الاقتصادية الى عدد من الصحف فى كل من ايطاليا وفرنسا ، بحيث عكست هذه المقالات وجهة نظر والراس . وفى عام ١٨٩١ قدمه صديقه مافو بانتاليونى Pantaleoni وهو ليبرالى اقتصادى الى والراس بقوله « أنه مهندس مثلك ، غير أنه اقتصادى يختلف عنك ، وهو يرغب فى أن يكون مثلك اذا أنت ساعدته على ذلك » (١٢) . ثم مرض والراس فدفعه صديقه الى ترشيح باريتو خليفة له ، ومن ثم عين باريتو فى ١٨٩٣ كأستاذ مرموق للاقتصاد السياسى ، وكان ذلك فى منتصف الأربعينات .

وفى أعقاب التحاقه بجامعة لوزان بدأ يشكو من الظروف السائدة هناك . فقد كتب فى رسالة له « توجد هنا مكتبة أحدث كتاب للاقتصاد السياسى بها هو كتاب جون ستيوارت مل » ، هذا الى جانب أن اختلافه ورفضه لآراء والراس عن التقدم والتطور جعله يختلف مع أفكار كانت تشكل مناخ هذه الفترة ، وهو ماسبب المتاعب له . إضافة الى أنه لما كان الاقتصاد هو العلم الأساسى فى كلية الحقوق ، فان باريتو وجد صعوبة كبيرة حين محاولته استبدال ودعم البحوث الاقتصادية بتطوير نظرية سوسيولوجية . هذا الى جانب أنه وجد نفسه وحيدا فى كلية تدرس القانون أساسا ، بل ان محاولته لفرض تعليم العلوم الاجتماعية وجدت مقاومة من زملائه ، ووصل الأمر الى أنه قد فشل حتى بعد أن أصبح عميدا فى أن يجد مكانا لاثنين من أصدقائه فى علم الاجتماع الأجرامى ، وقانون العقوبات . هذا الى جانب أنه قد قابل عدة صعوبات فى التدريس . فقد كان يلقى محاضرت على المبتدئين ، جعل منه ببغاء يحاضر أسلافا دارونيين . وقد دفعه عدم نجاحه فى التدريس الى التخفف من أعباء التدريس حتى أصبح يلقى محاضرة لساعة واحدة كل أسبوع فى الاجتماع السياسى وتاريخ المذاهب الاقتصادية والاجتماعية . ثم بلغ به الأمر الى أنه أصبح يحاضر ثلاثة شهور فقط فى السنة . حتى وصل فى النهاية الى ترك التعليم الجامعى كلية ، حيث استراح فى فيلته يحيا (ككائن كسول فى صدفيته) كما عبر هو عن ذلك (١٣) .

أما البعد الأخير الذى كان له تأثيره على حياته فيتمثل فى حالة العزلة التى تعرض لها باريتو فى نهاية حياته . ففى أعقاب عام ١٩٠٩ ، انسحب من كل الروابط التى كانت له مع

رفاقه ومعارفه . حقيقة أنه كان هناك بعض الزملاء من الجامعة الذين داوموا على زيارته ، أو بعض المفكرين من جامعات أخرى مثل روبرت ميشلز ، غير أن الدائرة ظلت تنكمش ، لأنه أصبح من الصعب عليهم أن يتحملوا هياجه وانفجاراته العصبية ، وحتى أصدقاءه أصبحوا موضوعا لهجومه . وحينما كان يحاول أى من أصدقائه أن ينبهه بلطف الى عدم لياقة ذلك كان يصرخ (من الواضح أن التجاهل هو سلاح الأقلية ، أما معظم البشر الذين يضمون البلهاء والأوغاد ، فان على المرء ان يستخدم القوة لكى يبقهم فى حالة من النظام ، وفى فترات الانتقال حيث لايكون ذلك ممكنا ، فان مايبقى لنا هو أن نضحك أو نستهين بالبلهاء والأوغاد) [١٤] . وقد انتهى به الأمر فى أواخر أيامه الى عزلة التامة عن الحياة الأكاديمية ، حيث بدأ ينكر أى قيمة علمية لآراء أى شخص لا يتفق مع أفكاره . وفى مقابل ذلك فانه حكم على هؤلاء الذين يتفقون معه حول المبادئ الأساسية مثل روبرت ميشلز Robert Michels وجورج سوريل George Sorel بأنهم يعملون بروح علمية حقيقية .

ويمكن القول بأن هذه الأبعاد ذات الطابع الشخصى كان لها – الى جانب الأفكار والاتجاهات النظرية التى سادت عصره – أثرها فى تشكيل موقفه النظرى . ويمكن القول بأن حالة عدم الاستقرار التى عاشها كان لها تأثيرها الواضح على طبيعة الشكل الذى اتخذته أفكاره ، كما يؤكد ذلك شهادة قرائه الذين واجهوا صعوبات بالغة فى الاطلاع على مؤلفاته وبخاصة مؤلفه الرئيسى « مقدمة فى علم الاجتماع العام » .

ثانيا : فلفريدو باريتو والشوق الى نموذج العلم الطبيعى .

فيما يتعلق بالموقف من العلم الطبيعى نجد أن تالكوت بارسونز يؤكد أن باريتو – كما هو معروف – قد تدرب فى اطار العلم الطبيعى وذلك بمعهد الهندسة بمدينة تورين ، ثم عمل مهندسا لعدة سنوات . ومن هذه اللحظة نجده لم يغفل اهتمامه بالرياضة والعلوم الطبيعية ، بحيث يفرض ذلك علينا اعتبارها عنصرا أساسيا فى تفكيره ونموذجا لتفكيره الاجتماعى فيما بعد [١٨] . وقد اتضح التزام باريتو بالنزعة العلمية فى كتابة المقدمة ، حيث عرض لكثير من الملاحظات الناقدة لما يسمى بالنزعة العلمية الزائفة عند كل من كونت وسبنسر . كما نجد أيضا اشارات ساخرة للديانات ، العلمانية عن التقدم والإنسانية والديمقراطية . ويرى باريتو أن مايجنبنا الوقوع فى هذه الفجوات غير العلمية ، هو أن يستخدم علم الاجتماع المنهج التجريبى المنطقى الذى يعتمد أساسا على الملاحظة والاستنتاج المنطقى وفقا لقواعد الاستقراء

الأساسية كما حددها ستيورات مل فالعالم التجريبى فى رأى باريتو يتكون من ظواهر وعلاقات من الممكن ادراكها بالحواس ، وعادة مايتيسر اخضاعها للقياس (١٩) .

ويعنى الالتزام بمنهج العلوم الطبيعية أيضا ، الا تكون هناك برهنة عقلية فقط ، وألا تكون هناك تأملات Speculations ، وأيضا لا تكون هناك محاولة لفرض رؤية أخلاقية فيما يتعلق ببعض القضايا الواقعية . اذ لاينبغى أن نعترف بشئ يتجاوز الحقائق أو لا يصف اطراداتها أو خصائصها وهى الممارسات التى يمكن أن تشكل عناصر فى نظرية علم الاجتماع المنطقى التجريبى . وبعبارة أخرى ، فنحن لا ينبغى أن نسمح بتدخل عنصر أو مبدأ مسبق فى نطاق علم الاجتماع . فقضايا علم الاجتماع وافتراضاته ينبغى ألا تكون أكثر من وصف الحقائق واطراداتها . وعلى هذا النحو فهى ليست مطلقة ولكنها نسبية ، معرضة للتغير طالما أظهرت حقائق جديدة عدم دقتها وكفاءتها . ومن ثم فينبغى اخراج مقولات مثل الضرورة Necessity والحتمية والحقيقة المطلقة من نطاق العلم . فقضايا هذا العلم ينبغى أن تكون احتمالية بدرجة أكثر أو أقل . اذ ينبغى أن يستند العلم الى النظرية الاحتمالية ، ويتبغى قياس صدق الحقيقة بحسب ذلك . كذلك لا ينبغى أن يدخل فى مجال هذا العلم كل مالا يخضع للتجريب أو الملاحظة . ذلك أن الموضوعات التى لا تخضع للتجريب أو الملاحظة لايمكن أن يقول العلم شيئا بشأنها اذا لايمكن أن يشكل مبدأ أو قيمة مطلقة أو تقويما أخلاقيا يتجاوز ممكنات الملاحظة والصدق التجريبى عنصرا فى علم الاجتماع التجريبى المنطقى (٢٠) .

غير أننا اذا اتفقنا على تأكيده على العلم الطبيعى كنموذج للعلم الاجتماعى ، فانه يستتبع ذلك الأخذ بمجموعة من الحقائق الرئيسية . وتتمثل الحقيقة الأولى فى أن الباحث لا ينبغى أن يهتم سوى بوصف العالم أو تحليله أو تفسيره ، أى أن يقف موقفا موضوعيا . وفى هذا الصدد يؤكد باريتو أن هدفه الرئيسى - الذى يركز عليه المرة تلو الآخرى - هو الحقيقة العلمية ، التى يمكن ادراكها فى المجال الاجتماعى اذا نحن طبقنا مناهج العلوم الطبيعية . حيث نلاحظ فى كل مؤلفاته تأكيدا على أنه لا يهتم بتغيير العالم أو تحسينه ، وهو أيضا لايهتم بتوفير توجيه نظرى يقود تفاعلاته الواقعية ، ولكنه يسعى لهدف رئيسى يتمثل فى دراسة اطرادات الظواهر الواقعية والحالية ، أى المعاشة فى الحاضر للكشف عن القوانين التى تحكمها (٢١) . .

أما المسألة الثانية التى تنبثق عن هذا الموقف المتمسك بنموذج العلم الطبيعى ، فتتمثل فى الحيادية ، وهو هنا يدرك الحيادية بمعنى خاص يتعلق به . وتتمثل فى ضرورة الفصل بين

صدق الفكرة ونفعها . اذ يؤكد أن نفع الفكرة وصدقها لايتطابقان فى المجال الاجتماعى ، فكلاهما كأمر واقعى ينفصل عن الآخر . وبصورة مستمرة يذكر باريتو قارئه ، أنه حينما يبرهن على عبث فكرة معينة ، فان ذلك لا يعنى أنها ضارة بالنسبة لأى شخص . وحينما يبرهن بأن فكرة معينة نافعة فان على القارئ ألا يفترض أنها صادقة تجريبيا . فمن الواضح أن هناك أفكار كثيرة شائعة بين البشر ، يعرف البشر أنها زائفة ، وأن صدقها النسبى مازال مجهولا (٢٢) .

أما المسألة الثالثة فتتعلق بتأكيده على القانون العلمى بصورة متطرفة . وفى هذا الصدد نجده يؤكد أن عنصر الضرورة فى القانون العلمى يعتبر عنصرا جوهريا فى بنائه المنطقى . وعلى هذا النحو فالقانون العلمى لا استثناء له . غير أن هذه الضرورة المنطقية ، والتى قد نسميها بالحتمية المنطقية Logical determinism (٢٣) ، ينبغى أن لا تنسحب على الظواهر الواقعية . ذلك أن النسق المغلق منطقيا والذى يتعلق ببناء النظرية العلمية لاينبغى أن يصبح نسقا امبيريقيا مغلقا بصورة تعسفية أو ارادية . فعلى العكس من ذلك يؤدى تطبيق النظرية امبيريقيا الى كم من الاحتمالات وليس الى الضرورات أو الحتميات (٢٤) .

خلاصة القول أننا نلمح تأثير منهجية العلوم الطبيعية على تفكير باريتو من زاويتين ، الزاوية الأولى وهى بطبيعتها زاوية عامة ، حيث نجد أن بعض جوانب الموقف المنهجى لباريتو قد أخذه عن منهج العلوم الطبيعية كما ناقشنا ذلك ، وكما سوف يتضح فى الفقرة التى سوف نقدمها عن المنهج خاصة فيما يتعلق بالعلوم الطبيعية الحديثة التى تتسم بالدقة ، من حيث بنائها المنهجى (٢٥) . أما الزاوية الثانية فتتمثل فى أنه قد نقل الى بنائه النظرى مجموعة من المفاهيم الأساسية التى كانت تلعب دورا أساسيا فى العلوم الطبيعية . وفى هذا الصدد يؤكد لويس كوزر L. Coser أن فكرتى باريتو عن النسق System والتوازن Equilibrium ، قد أخذهما عن العلوم الطبيعية (٢٦) .

ثالثا : باريتو والحوار مع الوضعية الاجتماعية .

وتعتبر الوضعية الاجتماعية كما طرحها سان سيمون وأوجست كونت خلال هذه الفترة الرافد الثانى الذى كان لباريتو موقفا واضحا معه . ومنذ البداية نجد أن باريتو كان لديه طموحا لخلق علاقة بين النظرية الاجتماعية الميكيافيلية ، وهى التى تنتمى الى الفكر الايطالى من ناحية ، وبين الفكر الوضعى بأشكاله المتعددة ، سواء كان السان سيمونية أو الوضعية الكونتية ، أو حتى تلك المتصلة بالداروينية الاجتماعية من ناحية أخرى (٢٧) . وحسبما تذهب

المراجع التاريخية ، هناك تأكيد لقراءته لكونت ، حيث لم يكن لديه شئ سوى احتقار النسق النظرى العام لكونت . اذ اعتقد باريتو أن علم اجتماع كونت ليس إلا نوعا من الدوجماطيقا التى تماثل الى حد كبير مؤلف بوسية Bosseut دروس فى التاريخ العام Discoures on Universal History ، أو هو حالة من ديانتين مختلفتين ، ولكنه يتصل بطريقة ما بالدين . ويؤكد باريتو أنة قد صدم بسبب اصرار كونت على أن العواصف وليست الأفكار هى المسئولة عن التماسك الاجتماعى . وهو فى ذلك يستند الى اقتباس عن كونت يؤكد على فكرة السيطرة الشاملة للعواطف . حيث استنتج باريتو أنه اذا كان كونت قد قنع بأن يكون عالما ، فانه قد كان عليه أن يكتب مؤلفا ممتازا حول قيمة الديانات ، حينئذ كان من الممكن أن يعلمنا أشياء كثيرة (٢٨) . ثم نجده يسخر من كونت باعتباره قد أصبح نبى الديانات الجديدة فبدلا من دراسة آثار الديانات التاريخية والمعاصرة نجده قد رغب فى خلق ديانة جديدة .. ومن ثم فقد فرض علينا مثالا آخر للضرر الذى وقع فى حق العلم) (٢٩) . وبرغم ذلك – حسبما يذهب كوزر – فاننا نجد أن باريتو قد تعلم كثيرا من كتاب (النظم) لكونت برغم عداوته الشديدة له فيما يتعلق بنبوءات كونت الخاصة بديانة الانسانية أو بالنسبة للاعتقاد المتفائل فى التأكيد على قوة الأفكار كما يظهر خلال مولفه (دروس فى الفلسفة الوضعية) .

غير أننا نجد أن موقف باريتو من سان سيمون يتميز بكونه أكثر سوءا ، اذ نجده ينظر الى السان سيمونية بنوع من الازدراء معتبرا سان سيمون مهرجا Buffoon يكسو تصوراته الدينية والأخلاقية بمظهر علمى خادع . غير أن الاشارة الى سان سيمون على هذا النحو مسألة تثير الريبة ، خاصة اذا عرفنا أن فكرة دورة الصفوة مأخوذة عنه . وقد تألم جيتانو موسكا Gaetano Mosca – وهو أحد منافسى باريتو – لذلك ، حينما أشار الى سان سيمون باعتباره رائدا مبرزاً لنظرياته ، وهو الاعتراف الذى لم نجد نضيرا له عند باريتو . وتكشف المقارنة عن وجود تشابه كبير بين نظريات باريتو ، ونظريات هذا المفكر الفرنسى الذى أكد ان البشر يولدون وهم متباينون من حيث ملكاتهم . وأنه نتيجة لذلك ينبغى تنظيم المجتمع تنظيما متدرجا ، بحيث يتولى الأمر فيه هؤلاء ذوى القدرات العالية . ويعتبر تأكيد باريتو على الفرص الكاملة للحراك الاجتماعى ، والمراكز المفتوحة أمام الموهوبين من القضايا التى تتماثل الى حد كبير مع عبارة سان سيمون التى قالها لحواريه المأثورين لديه ، والتى أكد فيها أنه جاهد طيلة حياته بهدف (توفير أفضل فرصة ممكنة لكل أعضاء المجتمع من أجل تطوير ملكاتهم) .

والحق أن اغفال باريتو للأفكار التى جاءت اليه من سان سيمون كانت خاصية عامة فى سلوكه الفكرى . اذ نادرا مانجده يقر بفضل السابقين عليه ، الذين قد أخذ عنهم بعض أفكاره . وهو الأمر الذى دفع أرثر لفنجستون ، وهو المحرر الأمريكى المعجب بأفكاره الى القول (فى مؤلف يحتوى على ملايين الكلمات والهوامش الكثيرة) ، والذى يحتوى على اشارات كثيرة لمفكرى فى الماضى والحاضر فاننا لا نعثر إلا على بضعة مئات قليلة من الكلمات التى تصف دين باريتو خاصة لكونت فيما يتعلق بمنهجه العام ، أو فيما يتعلق بالمشتقات التى أخذها عن بنتام (والذى نقل باريتو بعض قضاياها حرفيا) ونظريته عن دورة الصفوة التى أخذ بعض أفكارها عن جيتانو موسكا ، ونظرية الرواسب لفريزر . هذا الى جانب عدم تحديده لما يدين به فيما يتعلق ببعض القضايا والأفكار لهيجل Hegel ، ووليام جيمس William James ، وآخرين كثيرين (٣٠) .

يبقى بعد ذلك أن نوضح موقفه من جيتانو موسكا ، باعتباره المناظر الفكرى له ، والذى طرح نفس الأفكار تقريبا . والحق أن عدم اعتراف باريتو بتأثير بعض المفكرين عليه فيما يتعلق ببعض الأفكار كان أوضح مايكون بخصوص موقفه من جيتانو موسكا . فمازال هناك جدال بين مشايعى كل من باريتو وموسكا حول ادعاءاتهما المتبادلة حول نسبة بعض الأفكار – خاصة فيما يتعلق بنظرية الصفوة – لأى منهما . وبرغم أنه ليست هناك حاجة لأى شخص خارج هذا الحوار لاصدار أحكام محددة بهذا الصدد ، فمما لا جدال فيه أن موسكا قد سبق باريتو لسنوات كثيرة فى صياغة الخطوط العامة لنظرية الصفوة ، هذا برغم اختلافهما الواضح حول بعض القضايا والاعتبارات الأخرى .

فقبل أن يكتب باريتو شيئا حول هذا الموضوع فى ١٨٨٤ حدد موسكا – فى كتابه (الطبقة الحاكمة The Ruling Class) – أن الطبقة الحاكمة باعتبارها تتكون من هؤلاء الذين يمتلكون زمام القوة العامة ويمارسونها . وهم عادة مايكونوا قلة ، يخضع لهم طبقة كبيرة من الأشخاص الذين لايشاركون بأى معنى فى الحكومة ولكنهم يخضعون فقط لهذه الفئة القليلة ، وتسمى الطبقة الكبيرة الخاضعة بالطبقة المحكومة (٣١) . وقد كان عمر موسكا حينئذ خمسة وعشرون عاما فقط حينما قدم فكرته عن الطبقة الحاكمة الذى ظل يطورها بقية حياته . وفى هذا الصدد سلم بتأثره بسان سيمون الذى قال (ان القوة فى كل المجتمعات المنظمة تنقسم الى مجموعتين . الأولى تتحكم فى القوة الفعلية والأخلاقية ، أما المجموعة الثانية فتتحكم فى القوى المادية للمجتمع . وكلا من هذه القوى أو السلطات تمارسها سلطات منظمة تشكل فى

مجموعها الطبقة الحاكمة [٣٢] . وباعتبار أنه كان دقيقـا فى تحديد مصدر الهامه ، نجد أن موسكا كان غاضبا للغاية حينما وجد أن باريتو قد استولى على معظم أفكاره الأثيرة لديه ، بل أصبح أكثر غضبا حينما رفض باريتو بغطرسة هذا الاتهام حينما وجه اليه . بل نجده يذهب الى أبعد من ذلك فيلغى أية أشارات لموسكا فى الطبعات لجديدة لمؤلفاته القديمة [٣٣] .

ولايعنى ذلك أن باريتو لم يتجاوز موسكا ، ولتحديد هذه العلاقة بشكل دقيق نستند فى هذا الصدد الى تقديراً دقيقا لطبيعة العلاقة بينهما قدمه ستيوارت هوغ Stuart Hughes حينما كتب قائلا (تعتبر صياغة موسكا لهذه النظرية هى الصياغة الأولى والأكثر عمومية ، هذا الى جانب أنها تتميز بكونها تقع فى المجال السياسى أساسا ، وهى لم تفعل سوى النذر اليسير فى محاولتها تطوير ذاتها لكى تغطى تفاعلات المجتمع ككل .. وقد أكد موسكا فى كتابه الأول (أن كل طبقة سياسية تتعقل قواعدها بالنظر الى صياغة سياسية مقنعه ، واستنادا الى ذلك تعتبر الليبرالية والديمقراطية ، والاشتراكية هى الأمثلة الواضحة فى عالمنا المعاصر) غير أننا نجد أن موسكا لم يطور اكتشافه أكثر من ذلك . فهو لم يذهب أكثر من افتراض – مثلما فعل باريتو – أن الصيغة السياسية ليست ببساطة إلا مـثالا واحدا لطائفة أشمل من الصياغات الرشيدة [٣٤] .

رابعا : فلفريدو باريتو والداروينية الاجتماعية .

تعتبر الداروينية الاجتماعية من النماذج النظرية التى كان لباريتو علاقة واضحة بها . فهو قد أخذ عنها ورفض فيها أفكارا كثيرة . ويمكن القول بأن باريتو قد أعجب كثيرا بالداروينية الاجتماعية خاصة فى كتاباته الأولى ، وبهربرت سبنسر كأحد رواد الداروينية الاجتماعية . ويمكن القول بأن كتابات باريتو حتى ١٨٩٦ كانت تشير الى اعتقاد واضح فى ليبرالية القرن التاسع عشر ، وهو الاتجاه الفكرى الذى كان يفرض عليه ليس مجرد رفض تدخل الدولة أو مجرد النضال من أجل الحرية التجارية والحرية الفردية ، ولكن أيضا الاعتقاد فى التقدم كشعار أساسى يحكم تفاعل المجتمعات وتطورها . ومن الواضح أن قراءة أفكار باريتو تكشف مثلا أنه استفاد من مفهوم هربرت سبنسر عن التباين الاجتماعى ، مؤكدا ان المجتمعات تتحرك خلال التاريخ من مرحلة متجانسة وغير متباينة الى مرحلة غير متجانسة وأن الدافع وراء هذه الحركة التاريخية أن هناك درجة من التباين الاجتماعى المطردة التراكم بدأ منذ أيام الامبراطورية الرومانية وحتى الوقت الحاضر [٣٥] .

غير أننا نجد أن باريتو فى وقت متأخر حينما شرع فى كتابة مؤلفه (المقدمة) تخلى عن اعتقاده فى أفكار التقدم لصالح اعتناق النظرية الدورية الميكيافيلية فى التاريخ ، وأيضا لصالح الاعتقاد فى الدوام النسبى للخصائص الانسانية الأساسية . ويمكن القول بأن باريتو خلال هذه المرحلة كان ناقدا لسبنسر والدارونية الاجتماعية [٣٦] . فقد أكد بأنه (اذا سلمنا بأن نظم المجتمع عادة ما تكون متلائمة من الظروف التى يتواجد فيها المجتمع وأن المجتمعات لا تمتلك فى العادة نوعا من النظم التى تختفى فجأة ، فاننا فى هذه الحالة نصل الى مبدأ .. يمكن ان يساعد على تأسيس العلم) . غير أنه أكد أيضا أن الآمال العريضة فى هذا الاطار لم تعطى أية ثمار . اذ ينبغى تفسير أى شكل للتنظيم أو الحياة الاجتماعية (على ماتذهب النظرية الدارونية) بالنظر الى فائدته أو نفعه . ولكى نحقق هذه الغاية ، فانه ينبغى أن يؤدى التنظيم الدور المفترض أو المتخيل أن يؤديه ، والبحث فى الدارونية الاجتماعية يكشف أن هذه النظرية مجرد عودة الى الأسباب النهائية [٣٧] . ومن ثم فقد شعر باريتو خلال هذه المرحلة بضرورة أن تخضع الدارونية الاجتماعية لنوع من التعديل الواضح ، وأنها لاتستطيع أن تفسر أشكال النظم الاجتماعية ولكن ماتستطيع أن تفسره هى مجموعة التحديدات التى لاتستطيع أن تفسره هى مجموعة التحديدات التى لاتستطيع هذه النظم تجاوزها [٣٨] . فالبيئة لا تستطيع أن تحدد الأشكال لاجتماعية أو تفرضها ولكن كل ماتستطيعه هو مجرد وضع حدود معينة لا تتجاوزها التغيرات التى تستهدف القدرة على البقاء . ومن ثم لايمكن تفسير السلوك الاجتماعى بواسطة البيئة ، ولكن تفسير هذا السلوك يتطلب تحليل خصائص البشر الفاعلين فى المجتمع .

وبرغم أن باريتو قدم رفضا لفكرتى الدارونية الاجتماعية المتعلقتان بالتقدم والتطور الاجتماعى ، ثم أصبح ناقدا عنيدا لفكرة الدارونية التى تذهب الى أنه باستطاعة التغيرات البيئية أن تفسر التغير فى الملامح النظامية . ومع ذلك فقد ظل مدينا للدارونية والأفكار السبنسرية المتعلقة بالتساند المتبادل بين كل الظواهر الاجتماعية . وقد حبذ القول بهذه الفكرة من خلال دراسته للأنساق الفيزيقية . غير أننا نرى أنه الى حد كبير اقتنع بامكانية تطبيقها والاستفادة منها فى اطار المجتمعات الانسانية وذلك من خلال قراءته لأفكار دارون وسبنسر . وقد اشتق باريتو مثل كل معاصرية من الأمريكيين من أمثال كولى Cooly ، هربرت ميد Mead فى دراسته لسبنسر والدارونية وجهة النظر التى تؤكد على التداخل بين الأجزاء العديدة للكيان العضوى [٣٩] .

غير أننا نرى أن هناك مجموعة أساسية من الأفكار التى تأثر فيها باريتو بالداروينية أو على الأقل قدم رؤية مماثلة للداروينية بشأنها . وتتعلق الفكرة الأولى بتأكيد باريتو على الرواسب باعتبارها عناصر ذات طبيعة – بيلوجية سيكلولوجية – فطرية فى الكائنات البشرية ، وأن وظيفتها الأساسية تتمثل فى صياغة تكيف الكائن العضوى مع البيئة المحيطة ، ويمتلك الأشخاص الذين يمتلكون قدرا عاليا من الرواسب امكانية عالية على التكيف والواقع المحيط .

هذا بالاضافة الى أن باريتو يجعل دورة الصفوة للسياسية والاجتماعية مستلهمة لقانون الانتخاب الطبيعى الذى يؤكد على البقاء للاصلح . فهو يذهب الى أن انتصار المغامرون (الثعالب) على المحافظون (الأسود) يتحقق اذا ضعفت الطبقات الحاكمة بسبب ضعف الرواسب الكامنة بداخلها . بيد أنه تظل هناك احتمالية عالية فى أن جماعة الصفوة التى تمتلك مستوى عال من الرواسب ، يمكن أن تنتصر فى الصرع الاجتماعى ومن ثم استيلاؤها على السلطة التى تسيطر عليها جماعة الصفوة (الأسود) التى ضعفت لديها بعض الرواسب .

أما الفكرة الثالثة فتتمثل فى أن باريتو رأى أن الصراع الاجتماعى من أجل التكيف هو المدخل الملائم لحل مشكلات النظام الاجتماعى . فسيطرة الصفوة غير الحاكمة على مقاليد الأمور يتم لامتلاكها رواسب أقوى ، ومن ثم مقدرات أقوى على التكيف ، وهى عادة ماتدخل فى صراع مع الصفوة الحاكمة التى ضعفت رواسبها ومن ثم امكانياتها على التكيف ، بحيث ينتهى الصراع بالقضاء على الصفوة الحاكمة واحتلال مكانتها .

هذا الى جانب اعتبار باريتو أن مجرد ظهور النزعات الانسانية من قبل الطبقات العليا نحو الطبقات الدنيا يعتبر دليلا واضحا على ضعفها . ثم نجده يرفض هذه المشاعر ، مؤكدا أن الصراع هو المدخل الوحيد لانتقاء أكثر الصفوات قوة والتزاما للسيطرة على الأمور وضبط نظام المجتمع بالقوة ، وفى ذلك ترديد لقدر كبير من الأفكار الداروينية .

خامسا : باريتو والتحليل بمتغيرات غير ماركسية .

يعتبر الحوار مع النظرية الماركسية من المواجهات الهامة التى قادها فلفريدو باريتو خلال حياته العلمية ، حيث يتضمن مؤلفه النظم الاشتراكية كل جوانب الحوار الذى أسسه فيما يتعلق ببعض القضايا التى أثارها بشأن الماركسية . ويمكن القول بأنه يمكن ارجاع حواره مع

الماركسية الى عدة اعتبارات أساسية ، منها أن الماركسية شكلت فى ذاتها أحد النماذج النظرية التى تحتل مكانة أساسية فى بناء التفكير العقلى الذى أفرزته مرحلة التنوير فيما يتعلق بالانسان والمجتمع وطبيعة العلاقة بينهما . ثم أن الماركسية أيضا . من وجهة نظر باريتو – ليست إلا اشتقاقا أيديولوجيا يعبر عن رواسب المعاناة التى عاشتها جماهير المجتمع الصناعى خلال هذه المرحلة . ثم أن الماركسية من ناحية ثالثة تحاول تفسير تفاعلات النظام الاجتماعى القائم من منطق مختلف تماما .

ويكشف البحث فى أصل الحوار مع الماركسية عن تخلق مجموعة من الظروف الشخصية التى دعمت موقفه من نقد الاشتراكية ومن ثم الماركسية كأحد أشكالها . ففى ١٨٩٨ توفى أحد أعمامه الذى أوصى له بثروته ، ومنذ ذلك الحين بدأ باريتو يقود حياة مترفة لم يكن يتيحها له راتبه الأكاديمى البسيط ، ذلك أنه منذ أن أصبح بنى لنفسه منزلا فى سيلنى القريبة من لوزان فى مقاطعة جنوا حيث الضرائب أقل من لوزان . وتعرف هناك على رفيق له يسهر على حياته وراحته هو جان ريجيه Jane Règis . وفى فيلته التى بناها كان يعيش وحده مع مجموعة من القطط التى جلبها من أنقرة ، والتى كان يحب أن تكون دائما حوله . وفى هذه المرحلة ، عاش باريتو فعلا حياة مترفة ، يحتسى خلالها النبيذ الفاخر والخمور المعتقة ، وبعد أربع سنوات من حياته على هذا النحو ، أى فى ١٩٠٢ نشر كتابه النظم الاشتراكية Les Systems Socialistes ، الذى يعتبر تحليلا ونقدا تفصيليا للمذاهب الاشتراكية وتدخل الدولة . حيث اتسم أسلوب هذا المؤلف بالنقد الساخر والغاضب لمذاهب الاشتراكية برغم ادعاء باريتو بأن هذا المؤلف له طابع التحليل العلمى (٤٠) .

ونستطيع أن نحدد مواجهة باريتو للماركسية فى مجالين . الأول المجال المنهجى ، أما الثانى فيمثل مجال القضايا المتعلقة بالواقع العينى المعاش . وفيما يتعلق بالجوانب المنهجية نجد أن باريتو يرفض اعتبار الجوانب الاقتصادية وبالتحديد وسائل الانتاج هى المتغير المستقل ومن ثم الضابط للتفاعل الاجتماعى . اذ اعتبر باريتو الاشتراكية العلمية وليدة الحاجة لاضفاء الطابع أو المظهر العلمى على الطموحات الإنسانية (حيث أصبح الشكل العلمى هو أسلوب (أو موضة عصرنا) مثلما كان الشكل الدينى هو أسلوب أو موضة عصر سابق . ومن ثم – فمن وجهة نظر باريتو – تعتبر تحليلات ماركس للنسق الاقتصادى وللعلاقة بين الطبقات ،

ثم للاتجاهات البنائية للنسق ، ولمصادر القوة السياسية ، الخ .. مجرد ممارسات لامعنى لها بالنسبة لباريتو طالما أن التحليل العقلانى للظروف لا يدفع البشر أو يوجههم بأى معنى فى أى اتجاه (٤١) .

ثم يذهب الى أنه لايمكن تفسير الحقيقة الاجتماعية المعقدة بواسطة المتغيرات الاقتصادية فقط . حيث يتطلب ذلك دراسة سوسيولوجية تركيبية . فمن ناحية لا يستطيع علم الاجتماع أن يفسر الحقيقة الاجتماعية المعقدة ، اذا لم يأخذ فى الاعتبار قضايا الإقتصاد البحت كعلم ، تلك التى يدرسها بصورة منعزلة ، وفى اطار شروط مبسطة للغاية . ثم يؤكد أن التفسير الاقتصادى للتاريخ يصبح صحيحا طالما أن هناك اصرار على أهمية العوامل الاقتصادية فى تشكيل الظواهر الاجتماعية . ولكنه قد يخطئ الى حد بعيد اذا هو قد حاول تفسير هذه الظواهر من خلال العوامل الاقتصادية فقط . أو أن يجعلها سببا وحيدا لها ، بينما يجعل من العوامل الأخرى مجرد آثار أو نتائج (٤٢) .

أما الجانب المنهجى الثانى الذى واجه فى اطاره الماركسية فيتمثل فى التغير التاريخى وطبيعة العوامل المتحكمة فيه . ففى حين ترى الماركسية الجدل الذى يعبر عن التناقضات التاريخية باعتباره الوسيلة التصورية لوقوع التغير التاريخى . نجده يتصور هذا التغير تطورى الى الأمام ينشر الكمال الاجتماعى الانسانى ، فالماضى هو الذى يصنع الحاضر والمستقبل معا . هذا الى جانب تأكيد الماركسية على الطبيعة العقلانية للانسان ، باكتمال عقلانية الانسان أو رشده ، أى أن اكتمال وعيه سوف يعنى تأسيس التنير فى الاتجاه التاريخى الصحيح . ذلك يعنى أنه فى حين يرى ماركس الانسان كائنا عقلانيا يمتلك امكانية الكمال والاكتمال ، يراه باريتو كائنا لا عقلانيا أساساً وغير متغير . وفى مواجهة ذلك يقدم نظريته عن الرواسب بهدف شرح هذه القضية . وفى حين يرى ماركس الصراع الطبقى فى التاريخ باعتباره يقع فى الانساق الاجتماعية المطرد شيوعها أو شعبيتها (على الأقل بمعنى زيادة شوق أو امكانية الانسان الى الحرية ، أو السيطرة على قدره) ، ينظر باريتو الى التاريخ باعتباره دائريا Cyclical أساسا . وعلى نقيض مباشر لنظرية ماركس عن الصراع الطبقى قدم باريتو نظرية الصفوات .. حيث تعتبر دورة الصفوات هى المادة الحقيقية للتاريخ ، لها نتائجها أو آثارها القليلة على الشعب ، أو ربما ليس لها نتائج على الاطلاق (٤٣) .

ثم نجده يتقدم ليطرح العواطف الانسانية كمبدأ أساسى للتفسير . فخلال مؤلفه (النظم الاشتراكية) يؤكد باريتو أن العواطف تعتبر القوى الأساسية والمسيطرة على السلوك الاجتماعى . وأن المنطق والعقلانية لهما أهمية ضئيلة . وعلى الباحث ألا يتوقف عند تبرير البشر العقلى – الذى يعد لا شئ إلا أن يكون معقولا – وانما عليه أن يتجه الى تبرير العواطف الكامنة ، وعلى هذا النحو تصبح العواطف بالنسبة لباريتو ماكان عليه الأساس الاقتصادى بالنسبة لماركس . ولكن بينما تؤدى التغيرات فى النسق الاقتصادى الى تغيرات فى أخلاق البشر وبناؤهم السيكولوجى فى النهاية فان الأساس العاطفى لباريتو يظل هوية غير متغيرة ، فالذى يتغير هى التبريرات التى تفسر السلوك الانسانى .

وبا جاز يرى باريتو البشر – على خلاف ماركس – رؤية سيكولوجية مختلفة . حيث يختلف أبناء الطبقات العليا والسفلى من حيث بناؤهم السيكلوجى . وعادة مايكون ذلك نتيجة للعواطف عير المنطقية . حيث لا يحصل الأفراد من الطبقات الدنيا بصفة خاصة على أى قدر من الوعى أو الادراك العقلانى لظروف حياتهم أو وجودهم . ثم نجد باريتو يقدم لنا بعض مبادئ الحساب العلمى المنفعى . اذ يؤكد ان قدرا معينا من الارادة الخيرة من جانب الطبقات العليا نحو الدنيا قد يكون له نفع . غير أن أى زيادة قد تكون ضارة ومؤشرا على الانهيار . اذ تؤدى العواطف الانسانية فى كل فترات التاريخ الى ظهور نوع من اليقظة العاطفية . وحيثما يكون هناك قدرا خافتا من هذا الاتجاه فى الشعر والأدب و فان ذلك يكون دلالة على قوة الصفوة ودعم مكانتها . غير أنه بانهيار الصفوة فاننا نجد نموا للعاطفة الانسانية . تلك هى اذا فكرة باريتو الرئيسية ، أعنى نظريته عن العواطف ، التى تعد (الرواسب) و (المشتقات) تجليا لها .

وقد ينتاب العواطف تغيرا ضيئلا ، وقد لا تتغير على الاطلاق . أما مايتغير فهو الطلب المحدد على عواطف معينة ، أو التبريرات التى تطرح لبعض الأفعال التى تدفع اليها هذه العواطف . وفى هذا النطاق نجد أن باريتو يرى أن هناك فصلا حادا بين الصفوة واللاصفوة . اذ تتصرف الصفوة بوحى المصلحة الذاتية ، بينما تدفع الطبقات الدنيا الخاضعة الى حد كبير بواسطة العاطفة . ولكى توسع الصفوة مصالحها ، فان الصفوة تجد من الملائم أن تطلب الدعم من عواطف الطبقات الدنيا . وهنا تجد أن اللاصفوة nonelite تدفع الى الفعل بواسطة قوى

عمياء ، بينما تؤدى الصفوة دورها حسب ادراكها العقلانى لطبيعة الموقف . ولعله دليل يمكن الدفاع عنه أن الطبقات الدنيا من الناحية التاريخية قد رفعتها قوى لا عقلانية أساسا . أما الطبقات العليا فعادة ماتقودها الاعتبارات العقلانية . وبدلا من أن يرى باريتو هذه التشكيلات السيكولوجية المختلفة كنتائج للاختلافات فى ظروف الحياة الخاصة بكل من الطبقتين ، نجده يرى هذه الاختلافات السيكولوجية باعتبارها خصائص دائمة . فالعاطفة هى الأساس أما الباقى فمجرد مظهر خادع (٤٤) .

ويذهب باريتو الى القول بأن العواطف تختلف من حيث النفع ، وأنها غير موزعة بالتساوى فى المجتمع . حيث تعتبر التعديلات فى أشكال المجتمع نتيجة لانتقالات أو تحولات فى هذه العواطف . ويمكن للباحث أن يلاحظ هذه التذبذبات الهائلة التى تكررت فى التاريخ بدرجة أكثر أو أقل . فمثلا تستبدل فترات الشك بفترات من الايمان . ولما كان كل فرد يحتل مكانة محددة فى الهرم الاجتماعى ، ومن ثم فاذا رتب الباحث منا الأفراد حسب درجة التأثير والقوة السياسية فانه سوف يجد فى معظم المجتمعات أن هؤلاء الذين يملكون درجة أعلى من التأثير والقوة السياسية سوف يكونوا هم أنفسهم من الذين يملكون أكبر الثروات ، وتلك هى الصفوة . وفى ذلك نجد أن باريتو يشبه ماركس الى حد كبير فيما يتعلق بتأكيده على التلازم بين القوة الاقتصادية والسياسية . ولكن حيثما تميل القوة الاقتصادية بالنسبة لماركس الى تحديد القوة السياسية ، فان باريتو يرى أنهما يتحددان معا بواسطة وجود الأفراد الذين يمتلكون خصائص الصفوة ، أى الذين يمتلكون عواطف الصفوة (٤٥) .

الى جانب ذلك هناك مجموعة أخرى من الخلافات مع الماركسية على الجانب العينى ، أى فيما يتعلق بالتفاعل فى اطار الواقع الاجتماعى . ونخص بها ثلاثة وقائع أساسية ، الأولى وتتعلق بطبيعة تغير البنية الطبقية فى المشروع الماركسى ، وتتصل الثانية بطبيعة الصراع الطبقى ، أما الثالثة فتختص بطبيعة المجتمع الشيوعى الذى يتخلق عن الصراع الطبقى والثورة البروليتارية .

وفيما يتعلق بالصراع الطبقى نجد أن ماركس يؤكد أنه بمجرد إكتمال وعى البروليتاريا وادراكها لمصالحها ، فانها تقودة عادة الصراع والثورة . ومن ثم تغيير البنية الطبقية وبالتالى

البنية الاجتماعية . ذلك يعنى أنه اذا اتفقنا على أن الصراع الطبقى يعتبر مقولة رئيسية فى البناء النظرى الماركسى فان ذلك يدفعنا الى التساؤل المتعلق بموقف باريتو من هذه المقولة . اذ نجد باريتو يؤكد من ناحية على تناقض المصالح الطبقية ، ومن هذه الناحية نجده يقدر موقف ماركس فيما يتعلق بابرازه لدور هذا العامل (٤٦) . ثم يذهب الى التأكيد بأن الاشتراكية على حق تام فى تأكيدها على الدور الهام للصراع الطبقى ، أو اقرارها لهذا الدور باعتباره أكثر حقائق التاريخ أساسية ، ويذكر أن أعمال ماركس ولوريا Loria تستحق بالنظر الى ذلك اهتماما كبيرا (٤٧) . غير أنه عند هذا الحد يتوقف اتفاقه مع ماركس ويبدأ خلافه معه . حيث يرى باريتو أن الصراع الطبقى من المقرر أن يستمر أبدا ، وذلك على خلاف ماركس الذى يراه ظاهرة انتقالية ، أو لنقل ظاهرة تاريخية . وتأكيدا على ذلك يذهب باريتو الى أن أشكال البناء الطبقى قد تتغير بيد أن جوهره يظل كما هو . وذلك يرجع بالأساس الى أن الصراع له جذوره العميقة فى الطبيعة البشرية ، وهو أحد أشكال صراع البشر من أجل الحياة . فالصراع من أجل الحياة ، أو من أجل الوجود الأفضل ظاهرة مرتبطة بالكائنات الحية . وكل شئ نعرفه يرتبط بذلك يقودنا عادة الى التسليم باعتبار الصراع أعظم القوى الأساسية للحفاظ على بقاء الجنس وتحسينه . ومن ثم فمن غير المحتمل أن يتجاوز البشر هذه الحالة . وأن جهودنا لن تسفر عن تغيير جذرى فى طبيعته ، ولكن الى مجرد تعديلات طفيفة فى أشكاله . وهنا نجد أن باريتو ينظر الى الصراع الطبقى باعتباره جانبا لاينفصل عن صراع البشر مع الطبيعة ومن ثم فكلاهما حتمى ولا نهاية له . ذلك يعنى أن الصراعات الاجتماعية لها جذورها فى الطبيعة ، وليس فقط فى الطبيعة الأساسية للانسان ، الذى نجده مندفعا نحو انجاز فعله بواسطة قوى طبيعية ومن ثم (غير منطقية) (٤٨) .

أما فيما يتعلق بالتغيير الاجتماعى الذى يراه ماركس نتاجا للصراع الطبقى وتعبيرا عن وصول التناقض الطبقى الى منتهاه ، وهى العملية التى يساعد عليها ظرف تحقق الوعى الموضوعى لطبقة البروليتاريا وسعيها لتحقيق مصالحها ، ومن ثم فهى تطيح بالطبقة الأخرى من خلال التغير الثورى البروليتارى . فى مواجهة ذلك يطرح باريتو رؤية أخرى للتغير الاجتماعى ، أو للأسلوب الذى تنهار به الصفوة الحاكمة . اذ يؤكد أن الصفوات والطبقات

الأرستقراطية لاتدوم ، وانما تفنى بصورة سريعة . ومن ثم تبرز الحاجة أمام كل صفوة لتقوية نفسها بدعم من الطبقات الدنيا ، بل من أفضل عناصر هذه الطبقات . ويعبر انهيار الصفوة عن نفسه بظهور حالة متطرفة من النزعة الانسانية المرضية . بينما تتشكل الصفوة الجديدة الممتلئة بالقوة والحيوية فى قلب الطبقات الدنيا . ويكتب باريتو قائلا ان كل صفوة تكون غير مستعدة للدفاع عن موقعها فانها تسقط فى حالة من الانهيار التام . ولايكون أمامها سوى اخلاء مكانها لصفوة أخرى تمتلك خصائص القوة والحيوية التى افتقدتها الصفوة السابقة . فبواسطة القوة يمكن أن تتأسس النظم الاجتماعية . وبواسطة القوة أيضا يتم الحفاظ عليها . ويعتبر صراع الصفوات ودورتها هو المادة الدائمة للتاريخ . وحينئذ ، تعتبر الهبات الشعبية من الحركات التى قد لا تكون لها نتائج حقيقية بالنسبة للشعب ، غير أنها تساعد فقط على تسهيل سقوط الصفوة القديمة وصعود الصفوة الجديدة . وتستخدم الصفوات الطبقات الدنيا ، عن طريق اشباع بعض عواطفها ، لكى تحافظ على بقاء القوة أو الحصول عليها . ويكتب باريتو مؤكدا أن معظم المؤرخين لا يرون هذه الحركات ، وانما يصفون هذه الظاهرة كما لو أنها صراع الأرستقراطية أو الأولجاركية مع الشعب ، بينما هناك فى الحقيقة أرستقراطيتان تتصارعان من أجل السلطة ، ذلك أن الثورات العديدة التى وقعت فى التاريخ – منها مثلا انتصار البرجوازية على الارستقراطية الأقطاعية – لم تحقق شيئا للشعب ، ولن تحاول ذلك فى المستقبل [٤٩] . وهو مايعنى بالاضافة الى ذلك أن باريتو يحضر الصراع فى اطار الصفوات التى قد تستخدم الشعب أداة فى الصراع ، بينما يرى ماركس الصراع شعبيا أساسا تشارك فيه الأغلبية قيادة حركة الثورة ضد الأقلية .

وتشكل المرحلة الشيوعية فى النسق النظرى الماركسى القضية الثالثة التى شكلت اطارا للحوار بين كل من باريتو وماركس . واذا كانت الرؤية الماركسية قد أكدت على إنتفاء الطبقات ، ومن ثم الصراع الطبقى فى المجتمع الشيوعى ، باعتبار انتفاء التباين الاجتماعى والانسانى بين الأفراد وتحقق اكتمال الانسان . فى مواجهة ذلك نجد ان باريتو يذهب الى أنه ليس هناك تحريرا نهائيا للانسان وليس هناك مجتمعا لا طبقيا [٥٠] . ثم نجده يسخر من الاشتراكيين الذين يثقون بصورة كاملة بأفكار ماركس وانجلز باعتبارها مخزنا لكل المعرفة الانسانية [٥١] . ويذهب باريتو الى أنه وان سلم بفكرة الصراع الطبقى التى أثرت على حركة التاريخ بأسلوب

واضح ، إلا أن ماركس – نبى المجتمع اللاطبقى – ليس بالنسبة له سوى متعهد أساطير Purveyor to myth . ومن ثم فالقريب الى قلب باريتو الميكيافيلى هو ماركس المحلل القوى لصراع الطبقات من أجل امتلاك القوة فى المجتمع (٥٢) . وبصورة أكثر وضوحا يؤكد باريتو قائلا لنفترض أن الجماعية Collectivism قد تأسست وأن رأس المال لم يعد موجودا ، حينئذ يكون قد اختفى شكل واحد فقط للصراع الطبقى . وأن شكلا آخر سوف يظهر ليحل محله . اذ سوف تظهر صراعات جديدة بين الأنواع المختلفة من العمال والدولة الاشتراكية ، بين المثقفين وغير المثقفين ، بين رجال السياسة المتعددى الاتجاهات . بين رجال السياسة ورجال الادارة . بين المجددين والمحافظون ، الخ . ثم يتساءل هل هناك حقا هؤلاء البشر الذين يتخيلون بصورة جادة أنه بحلول الاشتراكية فان التجديد الاجتماعى سوف يتوقف ؟ هل لن تكون هناك رؤية لمشروعات جديدة ، وهل لن تدفع المصالح البشر لتبنى هذه المشروعات بأمل الحصول على مكانة متميزة فى المجتمع ؟ ثم يتساءل باريتو لماذا هو مقدر أن يكون الصراع الطبقى أبديا فى المجتمع الانسانى ؟ ، ثم يجيب أن دوام الصراع لايرجع لكون المجتمع معقد ومتباين ، ومن ثم يضم عديدا من الجماعات ذات المصالح المتباينة والمتناقضة ، ولكن لأن الصراع له جذوره فى الطبيعة البشرية ، بل انه يعتبر أحد أشكال الصراع من أجل الحياة (٥٣) .

سادسا : نظرية باريتو ، أبعادها الشخصية والاجتماعية .

مما لاشك فيه أن هناك تأثير لبعض الأحداث على تفكير فلفريدو باريتو ، سواء تلك التى وقعت على بعد تاريخ الحياة الشخصية أو على البعد المجتمعى ، وهو ماسنعرض له بايجاز .

فعلى المستوى الشخصى نجد أن باريتو قد قاد حياة شخصية غير مستقرة تتميز بضعف علاقاتها بواقعها المحيط . ويتضح ذلك سواء خلال مرحلة الجامعة حيث انعزاله داخل الجامعة عن زملائه حتى بعد أن أصبح عميدا لكلية القانون . وهى العزلة التى أعجزته عن اجراء بعض التغييرات الرئيسية فى برامج الدراسة ، هذا الى جانب هرب زوجته منه مع أحد خدمة . كل ذلك فرض عليه احساسا بعدم الثقة بالآخرين بل وعدم التألم لآلام الآخرين ، ومن ثم كان اعجابه الدائم بالصفوة والقوة وقدرتها على اخضاع الآخرين .

أما المسألة الثانية على البعد الشخصى ، فهى حالة الثراء المفاجئ – نتيجة للأرث – التى أصابته ، والتى وفرت له أمانا اقتصاديا ملائما دفعه الى العزلة المترفه عن حياة الجماهير ومعاناتها . وهى الحالة الى نجد لها انعكاسا مباشرا فى نقده للمذاهب الاشتراكية ، وخاصة النظرية الماركسية ، والتأكيد على القوة أو السلطة القمعية للجماهير ، وادانته لكل المشاعر أو العواطف الانسانية بل إنه اعتبر ظهور هذه المشاعر فى اطار الصفوة الحاكمة دالة أساسية على ضعف هذه الصفوة .

هذا الى جانب العزلة الأكاديمية التى كانت ملامح شخصيته أحد أسبابها . وحسبما يؤكد لفنجستون ، فإنه قد أخذ عن كل السابقين عليه ولم يذكر ما أخذه عنهم ، وتتجلى هذه الحالة بأوضع ماتكون حينما اختلف مع جيتانو موسكا ، إذ نجده قد راجع كل مؤلفاته وألغى منها أى ذكر لموسكا ، وهو مايعنى تأكيده على أنانيته الشخصية ولو على حساب كثير من الاعتبارات الأكاديمية .

وعلى البعد الاجتماعى توجد بعض الوقائع التى كان لها تأثيرها على طبيعه تفكيره . من هذه الوقائع حالة التخلف العام الذى تعتبر من أهم مؤشراتها انتشار الأمية الى مايتجاوز ٧٠٪ ، خاصة فى جنوب ايطاليا ، وهى الحالة الثقافية الى أعجزت الجماهير عن المشاركة السياسية الفعالة ، مما دفع باريتو الى التأكيد على مسألتين الأولى غياب الجماهير أو الغالبية الفعالة عن بنائه النظرى ، فهو يرى أن حركة التاريخ تتكون أساسا من صراع الصفوات ودوراتها . أما المسألة الثانية – فتتمثل فى تأكيده على اللاعقلانية فى مقابل العقلانية التى قالت بها النظريات الأخرى ، وعلى الرواسب والعواطف الكامنة فى عمق الذات الانسانية ، باعتبار أن هذه العناصر هى العناصر الحقيقية الدافعة لحركة التاريخ .

أما الواقعة الثانية التى كان لها تأثيرها على تفكيره فتتمثل فى حالة الانهيار البنائى الذى عانت منه ايطاليا خلال هذه المرحلة ، وحالة التفتت التى عاشها المجتمع الايطالى خلال هذه الفترة . كذلك حالة الفساد التى انتشرت ، كل ذلك دفعه الى التأكيد على الصفوة وعلى استناد الصفوة الى القوة كميكانيزم أساسى للحفاظ على الوحدة الاجتماعية – وهو هنا مايذكرنا بأفكار توماس هوبز عن القوة والسيف – بحيث اعتبر أن مجرد رفع الصفوة لبعض

الشعارات الانسانية والعاطفية يعتبر دالة أساسية على انهيارها كصفوة وضرورة تغييرها بعناصر جديدة قادرة على الامساك بالقوة أو السلطة لفرض الوحدة والتكامل على النظام الاجتماعى .

ذلك يعنى أن كثيرا من أفكار فلفريدو باريتو ، أو على الأقل جوانب كثيرة منها تعتبر بالأساس انعكاساً لطبيعة التفاعلات التى عاشها سواء على المستوى الشخصى أو على مستوى الواقع الاجتماعى .